
Volume 14, Issue 37 Spring and Summer 2023

which is under the pressure of modernity, subordination and cultural dissociation. This study attempts to analyze the psychology of the hero, who represents the frustrated class of the intellectual, floundering. in order to explore the secrets of the writer's psychology and her repressed visions embodied in the character of the hero. Exploring the features of the hero's personality ultimately leads to the significance of the story and the messages and discourses that it carries, which often come to correct behavioral distortions in a society wracked by crises. Perhaps the first thing that is learned from this novel is the writer's knowledge of the details of the social life he lived and closely touched, and his skill in writing it in a novel“

Keywords: Jalal Barjas, Notebooks of the Bookseller, Jordanian novel, Psychoanalysis.

The Sources and References:

- 1- Adunis, **Here You Are Time**, Beirut: Dar Al-Adab, 1993.
- 2- Al-Harashsheh, Muntaha Taha, The Patterns of Place in Jalal Barjas "The Five Senses Ladies": An Analytical Study, Journal of the Faculty of Arts, **University of Cairo**, Volume 81, Number 2, pp. 207-247, 2021.
- 3- Al-isawy, Abd Al-Rahman, **The Psychology of Socialization**, Alexandria: Dar Al-feker Al-Gamie, 1985.
- 4- Al-Majali, M. A, **Studies In Contemporary Jordanian Literature**, Amman: Culture minister, 2015.
- 5- Al-Rubeai, Sahib, **Despotism and The Oppressed People**, Damascus: Safahat for Studies and Publishing, 2007.
- 6- Badawi, Ahmad Zaki, **Dictionary of Social Scienc Terms**, Beirut: Librairie du Liban,1986.
- 7- Barjas, Jalal, **Notebooks of the Bookseller**, Beirut: Arab Foundation for Studies and Publishing, 2020.
- 8- Decart, Reneh, **Emotions of Self**, Translated by George Zinati, Beirut: Dar Al-Muntakhab Al-Arabi,1993.



Volume 14, Issue 37 Spring and Summer 2023

- 9- Freud, Sigmund, **Ausgewählte Schriften**, Translated by Hussein Al-Muzani, Beirut: Al-Kamel Publications, 2017.
- 10- Ghanem, Muhammad Hassan, **Psychoanalysis of Literature**, Cairo: Arab Civilization Center for Media and Publishing, 2005.
- 11- Hijazi, Mustafa, **The Wasted Man: A Psychosocial Analytical Study**, Casablanca: Arab Cultural, 2005.
- 12- Ismail, Ezz Aldin, **Psychological Interpretation of Literature**, Cairo: maktabt Gharieb, 1984.
- 13- Jabra, Jabra Ibrahim, **Meditations on a Marble Monument**, London: Riad El-Rayyes Books, 1988.
- 14- Laplanche, J and J. B. Pontalis, **Vocabulaire de la Psychanalyse**, Translated by Mustafa Hijazi, Beirut: University Foundation for Studies and Publishing, 1997.
- 15- Musa, Salama, **The Art of Love and Life**, Beirut: Knowledge Foundaion, 1947.
- 16- Noel, Jean Bellemin, **Psychanalyse et litte'rature**, Translated by Hassan Almawden, Cairo: Supreme Council of Culture, 1997.
- 17- Taha, F. A , **A Dictionary of Psychology and Psychoanalysis**, Beirut: Dar Al-Nahda Al-Arabia, 1989.
- 18- Taha, F. A , **Personality and principles of psychology**, Cairo: Alkhanji Library, 1979.
- 19- Wahba, Magdi and Kamel Al-Muhandes, **A Dictionary Arabic Literary and Linguistic Terms**, Beirut: Librairie du Liban, 1984.
- 20- **Zahran, Hamid Abd Al-Salam**, **The Social Psychology**, Cairo: Alam Al-Kotob, 1984.

مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، نصف سنوية دولية محكمة
السنة الرابعة عشرة، العدد السابع والثلاثون، ربيع وصيف ١٤٠٢ هـ / ش ٢٠٢٣ م

تقّعات في مرآا الذهن دراسة نفسانية لرواية "دفاتر الوراق" لجلال برجس

حيدر محلاتي * ID

صص ٢٣٥ - ٢٥٦

مقالة علمية محكمة

DOI: [10.22075/lasem.2023.30628.1375](https://doi.org/10.22075/lasem.2023.30628.1375)

الملخص:

يُعد التحليل النفسي للرواية مدخلاً مهماً لفهم الواقع الاجتماعي وما يُعانيه الإنسان من توترات وأزمات نتيجة ما أحدثته المدنية الحديثة وصراعاتها بين الموروث القديم وتحديات الحاضر. وتأتي هذه الدراسة النفسية لتسلط الضوء على العمل الإبداعي المميّز للروائي الأردني جلال برجس الذي نال الجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر) سنة ٢٠٢١ م على روايته الاجتماعية «دفاتر الوراق». والملاحظ أنّ الروائي في روايته هذه قد صوّر البيئة الاجتماعية التي عاشها بكامل أبعادها وخاصة السلبية منها في محاولة لتجسيد الواقع المعاش، وما له من مظاهر مقبّية وانعكاسات حافلة بالصور المؤثرة المثقلة بجراحات الماضي ومرارات الحاضر وغياب المستقبل المأمول. وتحاول هذه الدراسة تحليل نفسية البطل الذي يمثّل شريحة الشاب المثقف المحبط المتخبط في انطوائاته الذاتية ورؤاه الجانحة في الخيال، وهي صورة حية لا تغيب في مجتمعات العالم الثالث الذي ينوء تحت وطأة الحداثة والتبعية والانفصام الثقافي. وتتوخّى هذه المقالة من خلال منهجها النفسي والتحليلي قراءة أحداث الرواية ومجرياتهما المحبوبة بحرفية تامة قراءة فاحصة تستطلع خبايا نفسية الكاتب المتجلية في شخصية بطل القصة لتقف في النهاية على مغزى الحكاية وما تحمل من رسائل وخطابات تأتي في الغالب لتصحّح اعوجاجات سلوكية أصابت مجتمعاً تلاعبت به المحن والأزمات. ولعل أول ما يستشف من هذه الرواية هو إحاطة الكاتب بتفاصيل الحياة الاجتماعية التي عاشها ولا مسها عن قرب، وبراعته في تأليفها تأليفاً روائياً.

كلمات مفتاحية: جلال برجس، دفاتر الوراق، الرواية الأردنية، التحليل النفسي.

* - أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة قم، إيران. dr.mahallati@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٤٠٢/٠٢/٢٢ هـ. ش = ٢٠٢٣/٠٥/١٢ م - تاريخ القبول: ١٤٠٢/٠٥/٢٧ هـ. ش = ٢٠٢٣/٠٨/١٨ م.

مقدّمة

جلال برجس شاعر وروائي أردني ولد في قرية (حنينا) في محافظة (مادبا) سنة ١٩٧٠م. بعد تخرّجه من الثانوية درس هندسة الطيران في روسية وعمل في هذا الحقل لسنوات عدّة. مارس العمل الصحافي في الأردن وترأس تحرير صحف ومجلات كثيرة، وبدأ ينشر نتاجه الأدبي في أواخر التسعينات في عدد من الدوريات الأردنية والعربيّة، وأصبح عضواً في مجامع أدبية من مثل رابطة الكتّاب الأردنيين، واتحاد الكتّاب العرب، وحركة شعراء العالم. شغل منصب رئيس مختبر السرديات الأردني إضافة إلى عمله في إذاعة مجمع اللغة العربيّة الأردني. كتب الشعر والقصة والمقالات الأدبية والنقدية ونشر روايات عدّة حققت له نجاحاً كبيراً بعد فوزه بجوائز مهمة. «نال جائزة (روكس بن زائد العريزي) للإبداع سنة ٢٠١٢م عن مجموعته القصصية «الزلال»، وجائزة (رفقة دودين) للإبداع السردية سنة ٢٠١٤م عن روايته «مقصلة الحالم»، وجائزة (كتارا) للرواية العربيّة سنة ٢٠١٥م عن روايته «أفاعي النار»، والجائزة العالمية للرواية العربيّة (بوكر) سنة ٢٠٢١م عن روايته «دفاتر الورّاق». وقد تركت أعماله الأدبية أثراً واضحاً في تطور الحركة الروائية في الأردن^(١)».

اما رواية دفاتر الورّاق فهي قصة شاب يدعى (إبراهيم جاد الله الشموسي) يحترف بيع الكتب في كشك على إحدى أرصفة العاصمة الأردنية عمّان. والقصة عبارة عن تراكمات لأحداث توزّعت في أزمنة وأمكنة متباينة لتؤرّخ لأجيال ثلاثة هم إبراهيم الشاب بطل القصة الذي عاش في عمّان، وأبوه جاد الله الذي درس الفلسفة في روسيا إبّان الاتحاد السوفيتي، حيث تعرّض إلى اضطهادات إثر اتهامه بالشيوعية، وجدّه محمود راعي الأغنام الذي أراد أن يكون ابنه جاد الله طبيباً فخاب ظنّه. امتهن إبراهيم بيع الكتب بعد امتلاكه الكشك بعد وفاة أبيه، لكن سرعان ما فقدته بسبب مصادرتة من قبل أحد المتنفذين فأصبح عاطلاً عن العمل. فأثار في نفسه استياءً شديداً أحسّ إثره بانتفاخ في بطنه وسماع صوت في داخله يحرضه على الانتقام. وكان إبراهيم ينصاع لهذا الصوت ويلبّي طلباته من خلال تقمّمه لشخصيات قصص وروايات قرأها جعلته في آخر المطاف مجرماً يحترف اللصوصية والقتل. وتصوّر الرواية المجتمع تصويراً قاتماً سوداوياً يحفل بالفقر والفساد والجريمة، ولم يكن البطل فيها إلا منتقماً سلب حقه وحرّم من أبسط مؤهلات الحياة. وفي القصة مشاهد

١- الحراشة، منتهى طه، أنماط المكان في رواية سيّدات الحواس لجلال برجس، ص ٢١٠.

وأحداث مأساوية ارتبط وقوعها بانهيارات نفسية كان سببها الأسرة والمجتمع. إن رواية «دفاتر الوراق» ترصد الواقع الاجتماعي الذي عاشه الكاتب وترجمه على أرض الواقع بطل القصة إبراهيم بكل جرأة وصدق وحماس. ولعل أهم جانب في نجاح هذه القصة هو تصوير المجتمع تصويراً واقعياً بعيداً عن الزخرفة القصصية والسردي الفني المعهود. فعظمة الأعمال الفنية تقاس بكمية الصدق وحرارة الحياة الكامنة في شخصها وأحداثها ومدى استجابة الجماهير لهذه الأعمال التي تجد نفسها مجسدة فيها بكل عفوية وإبداع^(١).

من هنا كان الأدب الواقعي مدخلاً لدراسة الفرد في المجتمع ومرجعاً مهماً لنقل التجارب الاجتماعية القائمة على معرفة الذات الإنسانية. والسبيل إلى معرفة هذه الذات يتم من خلال التحليل النفسي للعمل الإبداعي. فثمة ارتباط وثيق الصلة بين الأدب والتحليل النفسي. إنهما يقرأان الإنسان في حياته اليومية وداخل قدره التاريخي بشكل عميق. والمعروف أن الإنسان لا يمكن أن ينفصل عما يقوله، إلا أنه يرسم هدفاً بغية الوصول إلى حقائق بالحديث عن الانسان وهو يتحدث^(٢). فإبراز الإنسان لمكوناته وذواته الخفية بصورة غير مباشرة عن طريق ألفاظ منطوقة وأحاديث مدونة تحقق له جزءاً من أهدافه إن لم نقل معظمها.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل رواية دفاتر الوراق تحليلاً نفسياً من خلال معرفة شخصية البطل واستجلاء حقيقة أمره والوقوف على معاناته وأزماته النفسية، وما أدت به من انفعالات وتصرفات انعكست على حياته الفردية والاجتماعية. ولعل أهم ما يصبو إليه هذا البحث هو تسليط الضوء على الأسباب التي دعت بطل القصة، وهو نموذج للشباب المقهور والمحبط، إلى القيام بأعمال شنيعة ساهم المجتمع في خلقها وزاد من حدتها الفراغ العاطفي وانعدام الحنان الأسري. فلذا تعتبر معرفة العوامل والأسباب وكذلك الدوافع المحفزة للانحرافات السلوكية للأفراد نقطة انطلاقٍ لحلحلة المشكلات الاجتماعية المستعصية، وبدايةً لمعالجة المجتمع من أمراضه المزمنة الضاربة في عمق التاريخ أو تلك التي استحدثتها المدنية الجديدة بتطوراتها السريعة وتشظياتها المبالغتة في العقود الأخيرة.

١- المجالي، محمد أحمد، دراسات في الأدب الأردني المعاصر، ص ٢٦.

٢- نويل، جان بيلمان، التحليل النفسي والأدب، ص ١٠.

أسئلة البحث

- تحاول هذه الدراسة من خلال تحليلها العلمي الإجابة عن السؤالين الآتيين:
- ١- كيف انعكست حالة البطل النفسيّة وأزماته الروحية على مجريات القصة وتداعيات الأحداث؟
 - ٢- إلى أي مدى ساهمت الرواية في تعرية المجتمع الغارق في انحطاطه الحضاري من خلال بيان مشاكله المستعصية، وما هو الدور الذي لعبه الموروث الأسري السقيم في اهتزاز شخصية البطل وانتكاساته المتتالية؟

خلفيّة البحث

هناك بحوث ودراسات في مجال التحليل النفسيّ للأدب يأتي على رأسها كتاب الباحث عز الدين إسماعيل الموسوم بـ «التفسير النفسيّ للأدب» وهو بحث رائد في موضوعه وقيم في محتواه. تحدّث فيه الكاتب عن العلاقة بين الأدب والنفس وارتباطهما بالحياة باعتبار الأدب وسيلة مهمة يعبر بها الإنسان عن ذاته ونفسيته وأحاسيسه ومشاعره. وقد تخلل هذا البحث دراسات تطبيقية من الشعر والنثر قديمه وحديثه، وكذلك تحليل عينات ونماذج من الأدب الروائي العربي والأجنبي. ويعد هذا الكتاب مرجعاً قيماً لتحليل النصوص الأدبية وفق المنهج التحليلي النفسيّ.

وكتاب «الأسس النفسيّة للإبداع الأدبي (في القصة القصيرة خاصة)» من تأليف شاعر عبد الحميد. وقد تناول المؤلف في هذا الكتاب النظريات النفسيّة الأساسية التي تعاملت مع موضوع الإبداع، من مثل نظرية التحليل النفسيّ ونظرية تحقيق الذات، كما عرض تصوّره الخاص لعملية الإبداع، وناقش أفكاراً مهمة حول جوهر الإبداع في الفن عامة وفي القصة القصيرة خاصة.

وكتاب «التحليل النفسيّ للأدب؛ دراسة نفسية في ملحمة الحرافيش لنجيب محفوظ» من تأليف محمد حسن غانم. وقد درس الباحث في كتابه هذا فئة من المنبوذين في المجتمع المصري يعرفون بالحرافيش وهم جماعة من العاطلين تقنات على صدقات الناس. وفي الكتاب تحليل نفسي لشخصيات هؤلاء وتصرفاتهم وأعمالهم وفقاً لمناهج التحليل النفسيّ والمنظور الاجتماعيّ.

وكتاب «الدراسة النفسيّة للأدب؛ النقائص والاحتمالات والانجازات» من تأليف مارتين لينداور وترجمة شاعر عبد الحميد. والكتاب يدرس دور علم النفس في مجال الأدب وكذلك دور الأدب في علم النفس وماهية العلاقة القائمة بين الأدب والعلوم الاجتماعيّة. وقد تطرق الباحث في كتابه أيضاً

إلى موضوع الإبداع وشخصية المؤلف وعلاقة العمل الأدبي بقارئه.

وكتاب «التحليل الاجتماعي للأدب» من تأليف السيد ياسين. وهو كتاب رائد في مجاله، يدعو مؤلفه إلى تأصيل علم الاجتماع الأدبي واستخدام مناهجه في دراسة الظواهر الأدبية. وقد تناول الباحث في كتابه هذا المشكلات المنهجية والتطبيقية في علم الاجتماع الأدبي مستعيناً بنماذج وعينات من الأدب الروائي العربي ليصوّر من خلاله انحرافات المجتمع تصوراً فنياً وأدبياً.

هذا في مجال البحوث النفسية للأدب، أما الدراسات العلمية المرتبطة بتحليل رواية «دفاتر الوّزاق» من الناحية النفسية فلم أجد لها أثراً في المكتبة الأكاديمية عدا مقالة صحفية للكاتبة التونسية ليلي عبد الله تحت عنوان «التناص آلية التحليل النفسي لأبطال "دفاتر الوّزاق"» نُشرت في جريدة القدس العربي، سنة ٢٠٢٢م، العدد ١٠٥٢٨، ص ١٢. وفي المقالة إشارات عابرة للتناقضات الشخصية لأبطال الرواية دون تحليلها تحليلاً علمياً ونفسياً. وفي ما يتعلق بدراسة رواية «دفاتر الوّزاق» وسائر أعمال جلال برجس الروائية خارج دائرة التحليل النفسيّ فثمة رسالة جامعية للباحثتين خولة مدغور وأسماء مازري تحت عنوان «العتبات والتقنيات السردية في رواية "دفاتر الوّزاق" لجلال برجس»، جامعة عبد الرحمن ميرة، الجزائر، سنة ٢٠٢٢م. وقد تناولت هذه الدراسة التقنيات السردية في الرواية من مثل البنية الزمنية والبنية المكانية والشخصيات والرؤية السردية. ومقالة بعنوان «قراءة في رواية "دفاتر الوّزاق"» من إعداد سمر أحمد تغلبي، نُشرت في مجلة المعرفة السورية، سنة ٢٠٢٢م، العدد ٧٠٦، ص ٢٤٦-٢٥٨. وفي المقال عرض عام لمداخل الرواية الرئيسة وتصوير مقتضب لفضاءاتها السردية كالفضاء الزماني والمكاني مع إشارات تاريخية لأحداث الرواية. أما الدراسات الأخرى التي تناولت سائر أعمال الروائي فيمكن الإشارة إلى رسالة ماجستير للباحث وائل الزغاية بعنوان «جماليات المكان في تجربة جلال برجس الروائية»، جامعة فلادلفيا، الأردن، سنة ٢٠٢٠م. وهي دراسة مفصلة لتقنية السرد المختصة ببعدها المكاني لأعمال جلال برجس القصصية التي سبقت رواية «دفاتر الوّزاق». وثمة مقال للباحث موسى إبراهيم أبو رياش تحت عنوان «صورة المثقّف في رواية "سيدات الحواس الخمس" لجلال برجس»، نُشرت في مجلة أفكار الأردنية، سنة ٢٠١٩م، العدد ٣٦٧، ص ٦٤-٦٨. وفيها تحدّث الباحث عن أنماط المثقّف الواردة في الرواية كالمثقّف الملتزم والمثقّف الانتهازي والمثقّف الحيادي والبون الواسع بين هذه الأنماط. ومقالة من تأليف الباحثة منتهى طه الحراحشة عنوانها «أنماط المكان في رواية "سيدات الحواس الخمس" لجلال برجس: دراسة تحليلية»، نُشرت في مجلة كلية الآداب، جامعة

القاهرة، سنة ٢٠٢١م، العدد ٢، ص ٢٠٧-٢٤٧. وقد تطرقت الباحثة إلى أنواع المكان في هذه الرواية من مثل المكان الأصلي والمكان الآني والمكان العرضي والمكان الواقعي والمكان المتخيل.

وكما هو واضح فإن هذه البحوث قد تناولت جوانب مختلفة من تقنيات السرد لدى جلال برجس دون أن تبحث المنحى النفسي فيها وخاصة في رواية «دفاتر الوراق» وهذا ما سنقوم به في هذه الدراسة.

منهج البحث

يتبنى هذا البحث المنهج النفسي في تحليل النص الأدبي وهو منهج قائم على قراءة التجربة الشعورية لكاتب الرواية. فثمة حقيقة نفسية تقول: «إن فهمنا لشخصية الكاتب يساعدنا كثيراً في فهم عمله الأدبي وتفسيره^(١)». أما معرفة الحالات النفسية المختلفة التي انتابت بطل القصة في العمل الروائي، وما تقف وراءه من دوافع كالكبت الغريزي والحرمان العاطفي والخوف الممنهج والاضطراب الدائم والقلق المطرد وغير ذلك من عوامل ومؤثرات تدعو إلى اعوجاج سلوكي وتصرفات فردية خطيرة، تأتي في سلم أولويات بحثنا في إطار هذا المنهج العلمي. هذه الظواهر النفسية المتشعبة هي التي نحاول تقصيها واستكشافها من خلال دراسة عيّنات من أفعال بطل الرواية ذات الصلة بكيانه النفسي واحساسه الشعوري.

الدراسة

بدايةً نقف عند المحطّات الرئيسة لبطل الرواية لتحليلها تحليلًا نفسيًا بغية معرفة الأسباب التي دعت إلى انتفاضة إبراهيم على المجتمع وانتقامه من أولئك الذين أبدلوا حياته جحيماً بعد أن كان قانعاً باليسير القليل دون أن يعرب عن امتعاضه مما يشاهده من تشرذم اجتماعي وتمايز طبقي وفساد سائد وممنهج. والرواية بلغت الواضحة وبيانها المعبر وأسلوبها الأسر وتسلسل أحداثها المنتظم هي في إطارها العام رواية اجتماعية بامتياز وإن كانت سرداً لحوادث ارتبطت بحياة أشخاص وأفراد. من هنا فإن موضوع الرواية هو بيان مشاكل الحياة الاجتماعية الحديثة وما أثار فيها الحدائث من

١- إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، ص ٢١٣.

إشكاليات حضارية تشابكت مع تراكمات قديمة وتداعيات لماضي سحيق.

وإذا ما أردنا دراسة النص الأدبي ذي الطابع الاجتماعي من الناحية النفسية فلا بد من تحليل ركنيه: الشخصية والبيئة. وهاتان الركيزتان هما أساس بناء الرواية الاجتماعية لارتباطهما الوثيق وتماسكهما المتلازم دون انفصال. وللشخصية تعاريف عدّة، فضلاً عن تعريفها الفني المتمثل بشخصية البطل في العمل الروائي، يمكن الإشارة إلى أهمها وهو: «التنظيم الدينامي لأجهزة الفرد النفسجسمية التي تحدد أوجه توافقه الفريد مع بيئته»^(١). وكما ورد في التعريف فإن شخصية الفرد ليست بمعزل عن بيئته فهي الشق المكمل لبناء حياته. ومفهوم البيئة اجتماعياً واضح إلى حد ما، إلا أنّ تفسير البيئة في نطاق الشخصية الروائية قد يختلف نوعاً ما عن تعريفه الاجتماعي العام. فالمراد من البيئة في العمل القصصي الظروف الاجتماعية التي تحدّد ماهية الأفراد و«هي التي تؤثر في كل فرد وتضغط عليه تأثيراً وضغطاً مستمرين»^(٢).

وعلى الرغم من تعدد شخصيات الرواية سواءً الرئيسة منها والثانوية كجواد الله والدة إبراهيم، والصحافية (ناردا)، والمتشردة (ليلي)، والطبيب النفسي (يوسف السماك)، والمتنفذ (إياد نبيل) وآخرين، وكذلك تنوع البيئة الجغرافية من مثل قرية (مادبا) وبلاد (روسيا) إلا أنّ الشخصية الأساسية المتمثلة بالبطل والتي تقوم بأدوار اجتماعية خطيرة هي شخصية إبراهيم الورّاق، والبيئة الأهم بتراكماتها الحضارية والاجتماعية فهي العاصمة عمّان. من هنا فإنّ التحليل النفسي في هذا البحث ينصب على بطل الرواية وبيئته عمّان التي نشأ بها وتركت في نفسه بالغ الأثر وأعماقه.

إرهاصات صريحة

تبدأ القصة ومنذ انطلاقتها الأولى بحديث واضح أشد الوضوح، بخلاف ما سنراه لاحقاً لدى تقصّي مجريات الأحداث وتداعياتها التي تكون خفية في الغالب، بأنّ البطل يعاني حالاتٍ نفسيةً ضاغطةً تجعله يحسّ في قرارة نفسه أنّ شيئاً في داخله ينتفخ رويداً رويداً، وهذه الحالة تتناوب بين الفينة والأخرى ولا تزال ملازمة له لا تبرح مكانها، ومتى ما شرد ذهنه وجنح إلى ماضي غير بعيد ينوء بالصور المشبعة حنقاً وبشاعة. نلمس هذا الوضوح عندما نسمع طبيب المستشفى يقول لإبراهيم

١- طه، فرج عبد القادر، الشخصية ومبادئ علم النفس، ص ١١.

٢- وهبه، مجدي وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٨١.

وبالحرف الواحد: «عليك أن تراجع طبيباً نفسياً»^(١). وهكذا تشرع حكاية البطل بهواجس نفسية تتجلى واحدةً بعد أخرى لتحيلها في نهاية المطاف إلى سكاكين مدبّبة تمزّق روحه وتنهش جسده. ويسير القارئ على وتيرة واحدة في وقوفه على هذه الهواجس؛ لأنها تسايهه دون انقطاع وتنحو صوبه خطوة بخطوة مفضيةً إليه أحداثاً درامية متتالية لا تبوح بأسرارها ولا تسمح بالكشف عن مكنوناتها ليتهاي ذهن المخاطب في فضاءات تشوبها ضبابية غير مألوفة. هذه الصورة الغامضة إلى حد ما لا تعدو سوى انعكاسات لأحداث تداخلت وتشابكت في أزمنة متتالية متعددة المكان. تمتد زماناً بين منتصف القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين في رقعة جغرافية متناهية تتمحور في عمّان العاصمة. فهواجس البطل تبلغ ذروتها في بيئته أي العاصمة عمّان ومنها تفاقمت أزماته النفسيّة. ويرى علماء النفس «أنّ البيئة لها أعمق الأثر في بلورة الشخصية وتنشئتها اجتماعياً تفوق الأثر الوراثي المكتسب»^(٢).

التأزم النفسي: علل وأسباب

تشير الرواية عبر أحداثها الكثيرة إلى أزمات نفسية حادة عصفت بشخصية البطل وفي أزمنة وأمكنته مختلفة ما أدت إلى انحرافات سلوكية غير سوية ساقط بطل القصة إلى اقتراف جرائم وقعت، بينما اعتبرها إبراهيم مجرد كوايس دونها في دفاتره^(٣). هذه الانحرافات الخلقية السيئة التي تضر بالفرد وبالآخرين، ولا تحقق نفعاً للذات أو للمجتمع، أو قد تحقق كسباً للذات لكنها تضر بالآخرين أو بالمجتمع تعرف في علم النفس والتحليل النفسيّ بسوء السلوك^(٤)، وهي عرض من أعراض الاضطرابات النفسيّة والروحية^(٥).

ولا شك أن مثل هذه الأزمات النفسيّة والحالات الروحية المضطربة لها أسباب وبواعث ليست وليدة الساعة بل تعود إلى أيام الطفولة وأبان النشوء الأولي. وهذه الفترة هي فترة شديدة الأهمية وحساسة للغاية من حيث بناء شخصية الطفل لأنها الأساس والنواة الأولى في تربية الطفل تربية

١- برجس، جلال، دفاتر الوراق، ص ٢٢.

٢- العيسوي، عبد الرحمن، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، ص ١٣.

٣- برجس، جلال، دفاتر الوراق، ص ٣٦٤.

4- Misbehavior.

٥- طه، فرج عبد القادر وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ص ٢٣٠.

سوية صحيحة^(١). من هنا فإن ما نشاهده من تصرّفات عدوانية وأعمال انتقامية لبطل القصة إنّما هي انعكاسات لفجوات عميقة وشروخ تربوية عانى منها البطل طوال عمره فلامست شغاف حياته ومسيرته الاجتماعية.

والغريب أنّ شخصية إبراهيم، كما تظهرها الرواية، هي شخصية وديعة وقنوعة وطيبة القلب ودودة تتجنب المماحكة والتجاذب. فلماذا انقلبت إلى شخصية منحرفة ومتطرفة؟ لقد ذهب كثير من علماء النفس إلى أنّ الأشخاص الذين يملكون في قلوبهم الكثير من الطيبة والكثير من الحب هم أكثر الناس عرضةً للغضب؛ ذلك أنّه لا يأتي من كره عميق ولكن من اشمئزاز سريع يفاجئهم، وسبب ذلك أنهم يميلون إلى الظن بأنّ كل الأشياء يجب أن تسير بالطريقة التي يعتقدون هم أنّها الأفضل، فما ان يحصل شيء بطريقة مختلفة حتى يشعروا بالاحتقار والإهانة فيقومون بأعمال منحرفة لا يقبلها المجتمع^(٢).

وهكذا تحولت شخصية إبراهيم من شخصية وديعة مسالمة إلى شخصية عدوانية ذات عوجاجات سلوكية. ونحاول هنا أن نستكشف الأسباب والعوامل التي دعت إلى مثل هذه التصرفات المنحرفة، وهي كالآتي:

١- فراغات عاطفية

عاش إبراهيم طفولةً مريرةً تخللها الكثير من الهزّات العاطفية. فمنذ أن كان في مقتبل العمر فقد أمّه التي ماتت بداء عضال ما ترك في نفسه أثراً قاسياً كان يتحمّله على مضض، بينما لم يستطع أخوه (عاهد) تحمّل الصدمة فأصيب بنوبة عصبية قرر بعدها الرحيل عن أهله. وهكذا ظلّ إبراهيم وحيداً يرى في أبيه الملاذ الأخير الذي يأوي إليه أثناء الشدة، إلّا أنّه في كل مرة يخيب ظنه بأبيه لما كان يرى منه من برود وعدم اكتراث. يقول إبراهيم: «احتجت إلى أبي أكثر من أي وقت مضى، كنت خائفاً وبني رغبة بأن ألوذ بحضنه وأبكي على غير عادة كل ذلك العمر الذي مضى ولم أفعّلها ولو مرّة واحدة، لم يحدث أن ضمّني، أو حتّى لامس رأسي كما يفعل الآباء»^(٣).

١- زهران، حامد عبد السلام، علم النفس الاجتماعي، ص ١٥.

٢- ديكارت، رينه، انفعالات النفس، ص ١١٨.

٣- برجس، جلال، دفاتر الوزاق، ص ٢٢.

هكذا يصوّر إبراهيم انعدام الدفء العاطفي في أسرته وخاصة بعد موت والدته وما ألفه من والده من صدود. وهذا يعني أنّ إبراهيم كان يعيش فراغاً عاطفياً يزيد من عزلته. وقد انعكس هذا الحنوّ المفقود على سير حياته ما أدّى إلى عواقب وخيمة. وينقل عن فرويد عالم النفس النمساوي أنّ فشل الطفل في إقامة علاقة حسنة بينه وبين والده يؤدي إلى نتائج سلبية قد تمتد معه مدى الحياة^(١). واللافت أنّ القاص يستعين بكلام من (سيغموند فرويد) في بداية الفصل الثالث ليعزز هذا المعنى فيقول: «المشاعر المكتومة لا تموت أبداً، أنّها مدفونة وهي على قيد الحياة وستظهر لاحقاً بطرقٍ بَشِيعَةٍ»^(٢). وهنا لا بد من الإشارة إلى لغة الرواية التي تميل إلى التفلسف والغموض الآني عندما تحلّق في فضاءات وجودية وفلسفية إلا أنها لا تلبث أن تعود إلى انسيابيتها السردية عندما تستأنف بتقنياتها المعهودة أحداث القصة.

والملاحظ أنّ (جاد الله) والد إبراهيم هو نفسه كان يعاني من هذا النقص العاطفي وانعدام الحنان الأسري، وخاصة بعد أن ماتت زوجته الاوكرانية الشابة (تاماركا) إثر حادث دهس بالسيارة، وهي التي كانت تمدّه بالحبّ والحنان في زمن كان الحزن والأسى سيد الموقف^(٣). وتستمر حالة جاد الله هذه بعد أن بدّد أحلام أبيه الذي كان يستقرض المال ليرسله الى ابنه في موسكو لدراسة الطب، إلا أنه رجع إليه فيلسوفاً!

ونقف نفس الموقف أمام (محمود) والد جاد الله ذلك الراعي البسيط عندما علم بأمر ابنه الذي ضيّع آماله سدى فلم يمهلّه حتّى صوّب نحوه البندقية فأصابه في كتفه^(٤). بهذه القسوة البدوية المفرغة من كل أنواع الحنان والعطف الأبوي واجه جاد الله وجه أبيه الغاضب. فلا غرابة أن نرى إبراهيم ينوء تحت وطأة الفراغ العاطفي؛ لأنّه توارثه، إن صحّ التعبير، أباً عن أب، وأنّ أجيالاً تناقلت هذه العقدة النفسيّة جيلاً بعد جيل حتّى بلغت مداها عند إبراهيم وأثرت سلباً في حياته وسلوكه الاجتماعيّ.

٢- تعسّف مجتمعي

١- غانم، محمد حسن، التحليل النفسي للأدب، ص ١٦٦.

٢- برجس، جلال، دفاتر الورّاق، ص ١١٩.

٣- المصدر نفسه، ص ٣٤٥.

٤- المصدر نفسه، ص ٣٢٤.

تتلور حياة الفرد في المجتمع سواءً بمنحاه الإيجابي أو السلبي. فالمجتمع هو الحاضنة الأساسية لرفي الفرد أو تحلّفه. وما هو إلاّ مكوّن من أفراد يشكّلون بانتمائهم الفكري والثقافي المشترك شرائح تميز طبقات عليا ودنيا وفي أفضل الحالات تتخللهما طبقة وسطية تعيش على استحياء بين الخوف والرجاء. والرواية لا تصور لنا الطبقة الوسطى؛ لأنها اندثرت وذابت بين الطبقتين الأولى والثانية. فهي تصف طبقتين فقط يجد إبراهيم نفسه في الطبقة الدنيا المعدّمة التي يصورها تصويراً دقيقاً وحيّاً حين يصف عزلته قائلاً: «وحيد مثل قط أكتع لا ألوي على شيء في جبل بيوته صغيرة، شوارع ضيقة، خطّها مهندس ثمل، أناسه متعبون مهمّشون قبالة جبال باتت تصعد فيها أبراج تجارية، وفلل ومولات، وتضجّ سماؤها ليلاً بألعاب نارية تشير إلى بهجات لم نذقها»^(١).

يشير إبراهيم إلى واقع مجتمعه الذي يتميز بالطبقية وهي ظاهرة جد خطيرة لأنّ الطبقة الدنيا تعتبر نفسها شريحة مقهورة هدّر حقّها أصحاب الثروة والسلطة. فهي لا تبرح ناقمة متأهبة لردود فعل عنيفة تجاه من يخس حقها واعتدى على كرامتها. ففي مثل هذا المجتمع يحدث صراع دائم بين أفراد قوامه الكراهية والبغضاء والعداوة والحقد الدفين. فهو مجتمع متناحر عدواني لا يعرف الطمأنينة والأمن والسلام لشدة نزاعاته واضطرابه.

والغريب أنّ التمايز الطبقي ليس كما يتصوره الناس بسببه الأغنياء والأثرياء بل هو نتيجة سياسات اجتماعية واقتصادية جائرة تطال جميع طبقات المجتمع، تستغلها الطبقة العليا بنفوذها وسلطانها بينما تنوء الطبقة الدنيا تحت وطأة ضغوطها لضعفها وقلة حيلتها أمام هذه السياسات العامة. من هنا يصطف أفراد المجتمع الواحد بصنفيه المنصور والمقهور. وليس أمام المقهور المحبط الذي تزداد هواجس الحقد والكراهية لديه باستمرار سوى مقارعة المتفوقين ثراءً وسلطاناً بتصرفات عنيفة وانفعالات حادة تجعل المجتمع يعيش دائماً في دوامة من التصارع وعدم الاستقرار.

فالتصرفات الحادة أو ما يُسمّى في علم النفس بالعدوانية^(٢) تحدث إثر تعسّف مجتمعي وهي في حد ذاتها متوقعة الحدوث؛ لأنها موجودة في الذات الإنسانية كما يراها علماء الاجتماع. فالعدوانية غريزة تلقائية وليست مجرد ردّ فعل على مثير خارجي محبط. فهي تتحرك تلقائياً وإذا لم تجد لها فرصة للتفريغ، فإنّ عتبة إثارتها تهبط بشكل ملموس. إذا لم تجد العدوانية لها عدواً خارجياً تصرف

١- برجس، جلال، دفاتر الوراق، ص ١٣.

من خلال التهجم عليه، فإنها ستتوجه إلى الجماعة في تناحر شديد يقضي على حديثها متعللاً بأوهى أسباب الخلاف^(١).

ونلاحظ هذا السلوك الانتقامي والتصرّف العدواني من أفعال بطل القصة وأقواله وخاصة عندما يستمع إلى ذلك الصوت المخيف المنبعث من أعماقه وهو يتحدث إليه قائلاً: «كان عليك أن تقتل من تسبب بالذي أنت فيه الآن، ابتداءً من زمن القرية وانتهاءً بزمن المدينة. الذين آذوك كثير، وأصواتهم ما تزال عالقة حتّى في شعر أذنيك. لكنك أجبن من أن تفعلها؛ لهذا سأقتلهم بطريقة وحشية. أنت لا تعرف معنى لهذه المفردة، ولا تعرف أنّك يمكن أن تصير وحشاً. الوحشية نقيض الحب، واليد المحبّة التي تمنح لمسة دافئة يمكن أن تستحيل إلى يد تجزّ رأساً. الصعوبة دوماً في بداية ما نفعل فقط»^(٢).

وأمام هذه الحالة الانفعالية الحادة والأعمال المتهورة المشهودة في الرواية وهي نموذج عن الحالة الاجتماعية للواقع المعاش يتطلب تخفيض حدة العدوانية بين أفراد المجتمع انطلاقاً من مبدأ الاجتثاث لمسببات الحقد وحالات القهر والتعسف وإزالة الفوارق الطبقيّة غير الطبيعية الناجمة عن حالة الاستغلال غير الإنسانية للفئات المسحوقة. فمن الواضح والأكد أنّ سيادة العدالة والمساواة وإحقاق الحق في المجتمع كفيل بانتزاع مسوغات الكراهية واللجوء للعنف وهذا الأمر يتطلب سلطة قوية عادلة تفرض القانون على كل فئات المجتمع دون استثناء^(٣). وقد يكون صعباً تحقق هذه الرؤية المثالية في مجتمع تختلف فيه مستويات الحياة ثقافياً واقتصادياً.

٣- ضياع الأنا والهوية

عندما يغرق المجتمع في مشكلاته المستعصية وينحط خلقياً وتصبح لقمة العيش مطمحاً أساسياً وغايةً منشودةً صعبةً المنال، تنهار هنا شخصية الفرد وتموت ذاته وتضيع هويته. فالذات أو «الأنا» التي تميّز كلّ فرد بشخصيته المستقلة والتي على أساسها يقوم المجتمع المستقل والمتحضّر تضمحل وتندثر شيئاً فشيئاً وعلى وقعه يسقط المجتمع وتهاوى قيمه. فغياب الذات يعني نكران الهوية وفقدان الشخصية والبحث عن «الأنا» المفقودة التي بدونها تنشأ عقد نفسية كثيرة أهمها

١- حجازي، مصطفى، التخلف الاجتماعي؛ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، ص ١٨٥.

٢- برجس، جلال، دفاتر الوراق، ص ٢٧.

٣- الربيعي، صاحب، سلطة الاستبداد والمجتمع المقهور، ص ٧٣.

عقدة النقص والدونية^(١). ففي هذه الحالة النفسية يحس الفرد بنقص عام في شخصيته أو نقص محدد في مكون من مكوناتها، فيسعى إلى تعويض إحساسه بالنقص والتغلب على هذه العقدة ليرد الاعتبار لذاته^(٢).

ولعل معظم شخصيات الرواية إذا ما أردنا تحليل ردود أفعالها نفسياً كانت تعاني من هذا الشعور الدوني. فنرى (عاهد) شقيق إبراهيم ينسلخ عن هويته بسبب أزماته النفسية واختلافه مع أبيه، ويمزق جواز سفره ليرتحل إلى تركيا ويهاجر كلاجئ سوري^(٣). و(ليلى) اللقيطة المتشردة تنسلخ عن ذاتها وأنوثتها فتقص شعرها مثل الرجال وترتدي ملابس رجالية لتتجنب التحرش والمضايقات، ثم هي تباع المناديل في الشوارع لعلها تجد أباه أو أمها^(٤). وإبراهيم نفسه عندما فقد محل عمله وخسر بيته وأصبح متشرداً كان يبحث دائماً عن نفسه، وكان يتذكر بألم كيف فقد أمه وأباه وأخاه وكيف باع كتبه وأحرق ما تبقى منها في الشارع ولم يبق له سوى دفاتر ذكرياته وشهادة أبيه وصورة العائلة وهي جميعاً ترمز إلى هويته ومنتماه^(٥). فمعاناة إبراهيم وآلامه المستديمة هي التي سببت له هذا الحزن القاتم. فالحزن كما عرفه علماء النفس ليس سوى رد فعل منتظم على فقدان شيء يحتل مكانة خاصة مثل الوطن والحرية والمثل العليا^(٦).

لقد كان بيت إبراهيم موطنه الذي استقى منه معنى الذات المستقلة وبعد أن فقد ظلّ يحلم به دائماً. يقول إبراهيم: «موجع أن يحلم الواحد منّا ببيت ولا يجده. وهذا العالم قاسٍ أكثر مما كنت أتوقع»^(٧). وهو بعد ذلك يقف عند هذه الحقيقة المرة أنه لم تكن له شخصية مستقلة قائمة بذاتها كما كان يتصور: «كم هو قاسٍ أن تكشف على نحوٍ مفاجئ أن حياتك صنّعة الآخرين، وأنك لم تكن إلاً مستجيباً لما يرونه الصواب»^(٨).

1- Inferiority Complex .

٢- طه، فرج عبد القادر وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ص ٢٣٠.

٣- برجس، جلال، دفاتر الوزاق، ص ١٢.

٤- المصدر نفسه، ص ١٣٧.

٥- المصدر نفسه، ص ١٤٥.

٦- فرويد، سيغموند، الغريزة والثقافة؛ دراسات في علم النفس، ص ٨٢.

٧- برجس، جلال، دفاتر الوزاق، ص ٢٢٥.

٨- المصدر نفسه، ص ٨٤.

هذه النماذج هي أمثلة قليلة من شواهد كثيرة لمعاناة الذات الضائعة التي أشارت إليها الرواية. ولعل مردّ هذه المعاناة والتفاقم السلبي هو تفشي الفساد في المجتمع وتدنيّ المستوى المعيشي إثر عوامل كالفقر والعوز والبطالة والانتهازية والاستغلال وابتزاز الآخرين وغيرها من سلوكيات المجتمع الفاسد. هذه المشكلات الاجتماعية هي التي تمثّل اضطراباً وتعطّلاً لسير الأمور بطريقة مرغوبة وتؤثّر بشكل سلبي ومباشر على أفراد المجتمع وتحول دون قيامهم بأدوارهم الاجتماعية وفق الإطار العام المتفق عليه والذي يتمسّى مع المستويات المألوفة للمجتمع^(١).

ولا يخفى أنّ شخصية الفرد تتكامل بمعرفة ذاته وتجسيد هويته. وهذا لا يعني أنّ الهوية هي محوٌ للآخر أو أنّها تقف أمام الآخر في صراع ونزاع؛ لأنّ الآخر هو نفسه يجسّد هويته وبهذا يصبح المجتمع مجموعة ذوات توحدّه هوية مستقلة تسمّى الوطن. فضياع الفرد يعني ضياع الوطن وكذلك العكس. هذا التلاحم بين الفرد والمجتمع هو الذي يحرك عجلة الحياة ويمنحها القوة والدوام. فالهوية كما قال أدونيس: «هي قوام الإنسان، وحركيّة اختلافه داخل ذاته مع الآخر وتفتح بلا نهاية. فالاختلاف الذي يعطي الإنسان ماهيته هو في هذه الفسحة داخل الانسان، حيث يتحرك دائماً لكي يتخطى ما هو، ويغيّر ما هو مغيراً العالم»^(٢). وهذا يعني أنّ هوية الإنسان (الأنا) بكل ما تحمل من خصوصيات متميزة عن الإنسان (الآخر) في المجتمع الواحد تمنح زخماً ثري النماء للمجتمع السوي المتناغم، وتساعد على تخطي عقباته وحلحلة معضلاته الاجتماعية.

التأزم النفسي: أعراض وحالات

بعد أن تعرّفنا إلى العوامل والأسباب التي دعت إلى تأزم شخصية البطل واضطرابه نفسياً بات واضحاً أن تظهر هذه الأزمات النفسية والروحية بشكل حالات مرضية وردود أفعال مشهودة وعوارض جسدية لها مواصفاتها الخاصة في علم النفس. ورواية «دفاتر الوِزّاق» غنية بتوصيف هذه الحالات النفسية والأزمات الروحية الخطيرة التي تنعكس بشكل سلبي على تصرفات المأزوم روحياً من خلال تعامله مع شرائح المجتمع. فهي تصرّح بها وتذكرها بالاسم تارةً، وترمز إليها بشكل غير مباشر تارةً أخرى. ومعظم هذه العلائم والاشارات المصرّحة والخفية هي أعراض وحالات نفسية مرضية تطرأ على المأزوم نفسياً وهو بطل القصة نستعرضها كالآتي:

١- بدوي، أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص ٣٩٣.

٢- أدونيس، ها أنت أيها الوقت، ص ٢٠.

١- فصام الشخصية

إنَّ أولى الحالات النفسية المرضية التي شخّصها الطبيب النفسي لدى فحص إبراهيم الوراق كانت فصام الشخصية. ومصطلح فصام الشخصية^(١) في علم النفس يطلق على حالات تدهور عقلي وعاطفي ناجمة عن تفكك الفكر والفعل والعاطفة واضطراب في الترابطات والتماسكات التي تحكم مجرى التفكير. فيأتي نتاج التفكير نشازاً وهو غالباً ما يكون مغلوطاً من الناحية المنطقية. ويولّد هذا الاضطراب الفكري عقدة عاطفية مفادها أن كل ما يتعارض مع العاطفة يجمع بشكل غير عادي وكل ما يتمسّى مع العاطفة يصادف بدوره محاباة غير عادية، تكون النتيجة أنّ الشخص لا يعود بمقدوره أن يفكر فيما يتعارض مع فكرة مشبعة بالعاطفة. وهكذا فالفصامي في طموحاته لا يحلم إلا برغباته، وأما ما يمكنه منع تحقيقها فلا وجود له بالنسبة إليه^(٢).

ولعل أخطر الآثار الاجتماعية الناجمة عن هذه الحالة النفسية المتأزمة هي ما يصدر من المأزوم من أعمال وردود أفعال خطيرة تجاه تحقيق أوهامه وتصوراته. تعرف هذه الحالة في علم النفس بالتقمّص أو التوحّد^(٣). وهي عملية تلجأ إليها النفس البشرية بشكل لا شعوري ودون أن يعي الفرد أنّه يقوم بعملية توحّد. وفي هذه الحالة يتمثل الفرد ويستدمج داخل ذاته دوافع واتجاهات وسمات شخص آخر بحيث تصبح دوافع واتجاهات وسمات أصيلة في الفرد تضرب جذورها في أعماق بنائه النفسي. وهكذا فإنّ التغيير الذي يحدث في الفرد أو في شخصيته كنتيجة لعملية التوحّد لا يكون مؤقتاً ولا مفتعلاً، كما يفعل الممثل في المسرحية حين ينتهي تقليده للشخصية بانتهاء دوره فيعود إلى حياته العادية، بل يكون عميقاً في تأثيره في الشخصية ومستمراً إلى حد بعيد^(٤).

كان إبراهيم يتقمّص أدواراً عدّة وشخصيات معروفة لدى ارتكابه أعمالاً إجرامية. فنلاحظه مثلاً عندما يريد أن يسطو على بنك للسرقة فإنّه يتقمّص شخصية «سعيد مهران» بطل رواية «الرصص والكلاب» التي كتبها الروائي المصري نجيب محفوظ (١٩١١-٢٠٠٦م) متأثراً بالبطل الذي كان يبحث عن العدل الضائع لينتقم من أولئك الذين أثروا على حساب الضعفاء^(٥). كان إبراهيم يحتمل

1- Schizophrenia.

٢- لابلانن، جان وج. ب. بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

3- Identification.

٤- طه، فرج عبد القادر وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ص ١٥٦.

٥- برجس، جلال، دفاقر الوراق، ص ٢٠٥.

المجتمع في كل مرّة مسؤوليّة ما يقوم به من أعمال. فليست أعماله إلا ردّة فعل طبيعية تجاه قسوة الاجتماع وجفاء تعامله معه. كان يرّد: «الحياة الحقيقية تجيء إثر جسارة في انتزاع ما تريده، من دون أن تأبه بكلّ ما سيصيب يدك»^(١).

ومعظم الشخصيات التي تقمّمها إبراهيم هي شخصيات تريد تخليص المجتمع من أيدي الفاسدين والمتنفذين والمتسلطين على رقاب الناس. فها هو يتقمّم شخصية «كوازيمودو» بطل رواية «أحدب نوتردام» للكاتب الفرنسي فيكتور هوغو (١٨٠٢-١٨٨٥م) حين أراد أن يعدّ خطة ثانية للسرقة. ولكي يدفع الشبهة عن نفسه يتشبث بشخصية روائية أخرى عرفت ببساطتها وسذاجتها هي شخصية الأمير «ميشكين» بطل رواية «الأبله» للكاتب الروسي فيودور دوستويفسكي (١٨٢١-١٨٨١م). وكلتا الروائيتين تصوّران احتقار المجتمع للضعفاء والمحرومين والمهمّشين في الحياة.

وتستمرّ تعلّقات إبراهيم وتشبّهاته بشخصياته المحبّبة التي كان يتقمّمها بكامل حركاتها وسكناتها ومظهرها وزيّها كشخصية الشاب الأنيق «زيفاكو» بطل رواية «الدكتور زيفاكو» للكاتب الروسي بوريس باسترناك (١٨٩٠-١٩٦٠م)، وشخصية «مصطفى سعيد» بطل رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للروائي السوداني الطيب صالح (١٩٢٩-٢٠٠٩م)، وشخصية «أحمد عبد الجواد» بطل ثلاثية نجيب محفوظ: «بين القصرين وقصر الشوق والسكرية»، وشخصية الكاتب والشاعر المجري البائس آتيلّا يوجيف (١٩٠٥-١٩٣٧م) الذي عاش حياة صعبة قاسية بين يثم واضطهاد عاطفي أفضت إلى إصابته بكآبة شديدة ساقته في النهاية إلى الانتحار تحت عجلات القطار^(٢).

ونجد في إحدى تقمّمات إبراهيم منحىً فلسفياً نابعاً من ثقافته التي استقاها من القراءة والمطالعة. فقد رغب مرّة أن يقوم بدور الفيلسوف المصلح الباحث عن الإنسان المثالي كما فعل الفيلسوف اليوناني «ديوجين» الذي أمضى عمره يبحث عن انسان لم يجده. فقام بمساعدة الفقراء والبائسين وشراء أثاث وملابس للمشردين الذين كانوا يسكنون في إحدى البيوت المهجورة معتبراً نفسه لئلاً شريفاً يخدم الفقراء^(٣). وهكذا كان يبرر بطل القصة أعماله من خلال تقمّماته لشخصيات مختلفة قادته في آخر الأمر إلى مستشفى الأمراض العصبية.

١- المصدر السابق، ص ٨٦.

٢- برجس، جلال، دفاتر الوزّاق، صص ٢٢٨، ٢٣٢، ٢٤٩، ٢٧٣، ٣٤٤، ٣٦٠.

٣- المصدر نفسه، ص ١٩٧، ٢٦٩.

وعلى الرغم من تعدّد الشخصيات التي تقمّمها بطل القصة وصعوبة الأدوار التي قام بأدائها واختلاف مستويات السرد الروائي في كل من هذه المشاهد المتنوعة فإنّ الرواية لم يتخللها ضعف أو هشاشة في نسيجها العام ما يدل على قدرة الروائي في حيك أحداث قصته بكل ما تحمل من بنية زمانية ومكانية متباينة، ورؤى متفاوتة تسير في مستقبل مجهول حيناً ويطلق عليها سخام الماضي القاتم حيناً آخر. فالمشهد الأكثر وضوحاً في سردية الرواية اتقان حيكاتها الفنية وتسلسل أحداثها الشائكة بمنطق سليم ونسق منتظم يدلان على براعة الكاتب ومراسه في العمل القصصي وتفننه في خلق فضاءات سردية متقنة.

٢- اكتئاب وعزلة

كانت حياة إبراهيم سلسلة من المآسي والنكبات أثارت في نفسه كوامن الحزن والألم ما جعله يعيش دائماً في اكتئاب ويأس. والاكتئاب حالة من الاضطراب النفسيّ تظهر بوضوح في الجانب الانفعالي لشخصية المكتئب حيث يتميز بالحزن الشديد واليأس من الحياة ووخز الضمير جرّاء شروخ لم ترتكبا الشخصية في الغالب، بل تكون متوهمة إلى حد بعيد. من هنا «كان احتمال الانتحار كبيراً حتى يتخلص المكتئب من هذه الحياة المليئة بالحزن والهم واليأس والقلق والمخاوف»^(١).

وتتجلّى حالة الاكتئاب في ثلاث شخصيات رئيسة في الرواية هم: إبراهيم (بائع الكتب)، وجاد الله (والد إبراهيم)، والصحافية (ناردا). أما الكآبة عند إبراهيم فكانت واضحة المعالم جلية من خلال حالات القلق والإحباط التي كانت تنتابه بين الحين والآخر، وهي حالات شبه مستديمة عانى منها طوال حياته. وقد صارحه الطبيب النفسيّ في أولى فحوصاته له قائلاً: «حالتك ليست بالمستعصية يبدو أنّك تعاني اكتئاباً، كل ما عليك هو أن تغير من روتينك»^(٢). ولعل تصرفات جاد الله (والد إبراهيم) خاصة في عنفوان شبابه كان لها الأثر الأعمق في تشديد اكتئاب بطل القصة كما سيتضح.

١- طه، فرج عبد القادر وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، ص ٦٢.

٢- برجس، جلال، دفاتر الوزاق، ص ٣٩.

كان إبراهيم يشاهد أباه وهو يتعاطى عقاقير مضادة للاكتئاب لفترات طويلة. وحالة الاكتئاب، كما صوّرها إبراهيم، هي التي دفعت والده إلى الانتحار^(١). وإذا ما استقرأنا شخصية جاد الله فسندجد عوامل عدّة سببت له هذا الاكتئاب القاتل. فطفولة جاد الله اختلفت عن طفولة الآخرين، فهو كثير الصمت، قليل الكلام، لا يلعب مع أقرانه، يطلب من أبيه أن لا يتركه، وكان يمضي جل وقته بعد المدرسة في ظل شجرة الزيتون يقرأ دواوين وروايات. وقد شاهد بأمر عينيه أحداثاً مروّعة كموت شقيقه (حمود) وموت أستاذه (عوّاد). ويستمر مسلسل الحزن عند جاد الله بعد ذهابه إلى موسكو وإخفاقه في تحقيق رغبة والده بدراسة الطب، وبعدها موت زوجته المفاجئ، ومن ثم اعتقاله بسبب شتمه «السوفيت»، وعند عودته يعتقل ويعذب مرات عدّة من قبل رجال الأمن لانتمائه إلى الحزب الشيوعي^(٢). هذه المآسي المستديمة هي التي جعلت جاد الله يتخوف من الناس ويؤثر العزلة. حتّى إنّ إبراهيم كان يتذكّر كيف كان والده يملي على أسرته قيوداً صارمة تدعوهم إلى التكتّم وعدم التحدّث إلى الجيران وخفض صوت التلفاز عند بث نشرة الأخبار. فكان يتمثل والده في طريقة تفكيره ومخاوفه عندما كان يعمل مع أبيه في الكشك ويتحول إلى شخص انعزالي^(٣).

تبقى شخصية (ناردا) التي كانت هي الأخرى تعاني من الاكتئاب بسبب إخفاقاتها في حياتها الزوجية وكانت تستعمل كثيراً من الأدوية والعقاقير، إلّا أنّ الطبيب نصحتها بأن تداوي الكآبة بالكتابة^(٤). وناردا كإبراهيم كانت تعيش في عزلة وقد أعربت في رسالة لإبراهيم عن أنّ التحدّث إليه يكسر عزلتها^(٥). فالعزلة هي الحالة الشائعة عند المكتئبين وقد عبّر عنها إبراهيم بأنها: «سجن اختياري تدبل فيه أرواحنا ونصير مثل الأشجار التي تسقى بماء مالح»^(٦).

إنّ اكتئاب هؤلاء الثلاثة وعزلتهم هي في الحقيقة تمثيل واضح وتجسيد صريح لعزلة المثقف واغترابه عن مجتمعه. لقد بات المثقف يشعر بأنّه في طبيعة مجتمعه المتغيّر إلّا أنّه في الوقت نفسه يشعر بأنّه غريب عنه، وأنّ طاقته أصبحت مهدورة في خضم القوى المتنازعة، وأنّ مرايا ذهنه قد

١- المصدر السابق، ص ١٢.

٢- المصدر نفسه، ص ٢١٦، ٣٣٢.

٣- المصدر نفسه، ص ٦٩.

٤- برجس، جلال، دفاتر الورد، ص ٢٨٩.

٥- المصدر نفسه، ص ٢٩٥.

٦- المصدر نفسه، ص ٣١٦.

تقعرت ولم تعد تعكس الصورة على حقيقتها. فهو باكتسابه المعرفة والقدرة على التفسير والتعبير أصبح يمتلك رؤية إصلاحية لا يستطيع تطبيقها في مجتمع متخلف، فيستدّ تدمره من هذا التخلف ليتحوّل إلى ضرب من الكآبة يدفعه إلى الانطوائية والاعتزال^(١).

٣- محاولات انتحار

إنَّ أخطر حالات التأزم النفسيّ الحاد الناشئ عن الاكتئاب هي تلك التي تقود إلى الانتحار. والانتحار هو إقدام الشخص على إنهاء حياته بنفسه وإرادته لأسباب متعددة. وقد أشارت الرواية إلى مجموعة من الأسباب التي دعت إلى بروز حالة الاكتئاب، كما ذكرنا، وهي نفسها التي سببت تفاقم حالة المكتئب واحتداد أزمته النفسية فحاول إثرها الانتحار.

واللافت أن أشخاص الرواية الذين قاموا بالانتحار هم أنفسهم الذين كانوا يعانون من الاكتئاب، وهم: جاد الله وإبراهيم وناردا. اما جاد الله فقد ذكر الروائي قصة انتحاره في بدايات القصة، وكيف علّق حبلًا في سقف المطبخ ووقف على الكرسي ثم تهاوى ميتاً^(٢). وبالنسبة إلى إبراهيم فقد تعددت محاولات انتحاره وبأشكال مختلفة. بدايةً حاول أن يغرس سكيناً في بطنه ليتخلص من ذلك الصوت المرعب، ثم هو يسعى إلى أن يغرق نفسه في البحر الميت، إلا أنه بحر لا يغرق فيه أحد. بعدها يستقل حافلة من عمّان إلى العقبة ليلقي بجسده في البحر الأحمر، إلا أنّ لمسة يد دافئة على كتفه حالت دون ذلك^(٣). يقول إبراهيم بعد أن تراجع عن فكرة الموت والانتحار: «عدت إلى غرفتي أتقل ما بين السرير والكنبة كقط سجين، أفكر بطريق إلى امرأة حالت بيني وبين مصير غريب. امرأة هي الأخرى كانت ذاهبة لتنتهي حياتها ثم تراجعت، هناك أسباب تدفعنا للإقدام على الموت، وهناك سبب واحد يعيدنا إلى الحياة»^(٤).

إنَّها الصحافية (ناردا) التي قادها الاكتئاب الحاد إلى الانتحار بسبب ما عانته من اضطهاد في حياتها الزوجية إلا أنّ تعرّفها إلى إبراهيم هو الذي أنجأها وأنجى إبراهيم من الموت. كلاهما كانا يعيشان في فراغ عاطفي فشاءت الحياة أن تمنحهما ابتسامة صغيرة فيقلعان عن الموت، ليبقى

١- جبرا، جبرا إبراهيم، تأملات في بنيان مرمري، ص ٤٤، ٤٥.

٢- برجس، جلال، دفاقر الوراق، ص ١٣.

٣- المصدر نفسه، صص ٥٤، ٦٦، ٨٨.

٤- المصدر نفسه، ص ١٠٢.

الحنان والحب الإنساني صمّام الأمان إلى الأبد. فالحب عند اللقاء والتآلف يجسّد سعادة سامية، ثم هو عند الحرمان لوعة وخلوة واكتئاب^(١).

لقد حاول الكاتب في ثنايا روايته أن يستحضر خصلةً إنسانيةً رفيعة غيّبتها الحداثة في عصرنا الحاضر هي المودة والحب المانح للحياة. هذه الخصلة التي تؤكّد أنّ سعادة الإنسان تسمو بقدر سمو مشاعره النبيلة تجاه الآخرين وما يكتنه لهم من حب وحنان ومودة. فلا حياة من غير توادد متقابل يمنح الدفء ويحث على مواصلة الطريق.

النتيجة

حاولت هذه الدراسة تحليل رواية «دفاتر الوزّاق» لجلال برجس تحليلاً نفسياً، وقد توصّلت إلى نتائج هي كالآتي:

- ١- يستشف من ثنايا الرواية أنّ الثقافة ليست أداة تفكير وتعبير على المستوى الفردي فحسب، بل هي أداة تغيير وتقرير مصير على المستوى الاجتماعي. وتوظيف الثقافة توظيفاً سليماً شرط لازم للتغيير؛ لأنّ فكر المثقف ومرايا ذهنه لا تعكس صوراً مطابقة للحقيقة إذا ما تقعّرت وفقدت استواءها، بل على العكس تسوق الإنسان إلى المجهول كما لاحظنا في نهاية بطل القصة.
- ٢- ثمة محطّات مشتركة تجمع الروائي جلال برجس مع بطل القصة إبراهيم الوزّاق. فالكاتب من مواليد منطقة (مادبا) موطن بطل القصة. وقد درس في روسيا لسنوات عدّة كما فعل جاد الله والد إبراهيم. وعاش تفاصيل الحياة الاجتماعية في عمّان الأردن وخبر جزئياتها ومشاكلها كما عاشها بطل الرواية. فلا يستبعد أن تكون أفكار القصة ومضامينها الاجتماعية حصيلة تأملات الروائي وفلسفته في الحياة والاجتماع، ومحاولاته الجادّة في تسليط الضوء على واقع المجتمع المأساوي بكل ما يحمل من سلبيات وسلوكيات منحرفة.
- ٣- تبيّن من خلال التحليل النفسي لشخصيات الرواية الرئيسة أنهم كانوا مصابين بحالات نفسية متأزمة من مثل فصام الشخصية والاكئاب ما دعتهم إلى ردود أفعال عنيفة كالانتحار أو أقل عنفاً مثل العزلة والانطواء على الذات. وكان وراء هذه التصرفات الحادة أسباب منها الفراغ العاطفي والتعسف المجتمعي وفقدان الهوية واستلاب الذات.

- ٤- تدعو الرواية من خلال وصفها الدقيق لشؤون المجتمع المتخلف وشجونه إلى العدل والمساواة وتحدي الظلم والفساد بشتى أشكاله ابتداءً من الخلية الأولى للمجتمع وهي الأسرة وانتهاءً إلى المجتمع بسرائحه كافة.
- ٥- تركز الرواية على ضرورة السلامة النفسية لأفراد الأسرة وأهمية دور الوالدين في تنشئة أبنائهم تنشئةً سليمةً سويةً، تبرز في قلوبهم بذور الاطمئنان والمحبة والثقة بالنفس لتعينهم على مواكبة الحياة مهما جار المجتمع وكثرت سلبياته. فسلامة المجتمع رهن سلامة أفراد.
- ٦- تسلك الرواية في منحها الموضوعي العام مسلك الروايات الاجتماعية الواقعية التي تتوخى عرض الواقع المعاش للمجتمع، وبيان ما استعصى من مشكلاته وهي السمة الغالبة فيها، إلا أنها في بعض الأحيان تنحو صوب الخيال الجامح الذي يتضارب مع الواقع وخاصةً عندما يطمح البطل إلى تجسيد مدينته الفاضلة المبرأة من كل عيب ونقص.
- ٧- تأتي هذه الرواية لتساهم من حيث المبدأ في إرساء قواعد فنية مستحدثة وتأصيل رؤى جديدة مبتكرة في عالم السرد والرواية أساسها شخصية البطل المتمثلة بميزاته النفسية وسلوكياته الاجتماعية ومدى تأثيرها بين شرائح المجتمع.

قائمة المصادر والمراجع


- ١- أدونيس، ها أنت أيها الوقت، بيروت: دار الآداب، ١٩٩٣م.
- ٢- إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٨٤م.
- ٣- بدوي، أحمد زكي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٦م.
- ٤- برجس، جلال، دفاتر الوراق، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٢٠م.
- ٥- جبرا، جبرا إبراهيم، تأملات في بنيان مرمري، لندن: رياض الرئيس للكتب والنشر، ١٩٨٨م.
- ٦- حجازي، مصطفى، التخلف الاجتماعي؛ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م.

- ٧- الحراحشة، منتهى طه، مقالة «أنماط المكان في رواية (سيّدات الحواس الخمس) لجلال برجس: دراسة تحليلية»، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ٨١، العدد ٢، سنة ٢٠٢١م،

- ٨- ديكارت، رينه، انفعالات النفس، ترجمة جورج زيناتي، بيروت: دار المنتخب العربي، ١٩٩٣م.
- ٩- الربيعي، صاحب، سلطة الاستبداد والمجتمع المقهور، دمشق: صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م.
- ١٠- زهران، حامد عبد السلام، علم النفس الاجتماعيّ، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٤م.
- ١١- طه، فرج عبد القادر، الشخصية ومبادئ علم النفس، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م.
- ١٢- طه، فرج عبد القادر وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسيّ، بيروت: دار النهضة العربيّة، ١٩٨٩م.
- ١٣- العيسوي، عبد الرحمن، سيكولوجية التنشئة الاجتماعيّة، الاسكندرية: دار الفكر الجامعي، ١٩٨٥م.
- ١٤- غانم، محمد حسن، التحليل النفسيّ للأدب، القاهرة: مركز الحضارة العربيّة للاعلام والنشر، ٢٠٠٥م.
- ١٥- فرويد، سيغموند، الغريزة والثقافة؛ دراسات في علم النفس، ترجمة حسين الموزاني، بيروت: منشورات الجمل، ٢٠١٧م.
- ١٦- لابلاش، جان وج. ب. بونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسيّ، ترجمة مصطفى حجازي، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٧م.
- ١٧- المجالي، محمد أحمد، دراسات في الأدب الأردني المعاصر، عمّان: وزارة الثقافة، ٢٠١٥م.
- ١٨- موسى، سلامة، فن الحب والحياة، بيروت: مؤسسة المعارف، ١٩٤٧م.
- ١٩- نويل، جان بيلمان، التحليل النفسيّ والأدب، ترجمة حسن المودن، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧م.
- ٢٠- وهبه، مجدي وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م.

آینه‌های مقعر ذهن

بررسی روانشناختی رمان "دفترچه‌های کتابفروش" اثر جلال برجس

حیدر محلاتی* 

مقاله علمی - پژوهشی

صص ۲۳۵-۲۵۶

DOI: [10.22075/lasem.2023.30628.1375](https://doi.org/10.22075/lasem.2023.30628.1375)

چکیده

جلال برجس رمان‌نویس اردنی است. رمان اجتماعی او با نام "دفترچه‌های کتابفروش" برنده جایزه بین‌المللی ادبیات داستانی عربی (بوکر) در سال ۲۰۲۱ میلادی شد. این مقاله به جنبه‌های مختلف این اثر خلاقانه می‌پردازد که در آن، رمان‌نویس با به تصویر کشیدن محیط اجتماعی قهرمان سعی در تجسم گذشته‌های تاریک و تلخی‌های حال حاضر او دارد. این داستان حکایت کتابفروشی فرهیخته را نقل می‌کند که خانه و کار خود را بر اثر زیاده‌خواهی‌های طبقه فاسد جامعه از دست داده، و باعث تنهایی، آوارگی و روان‌پریشی او شده است. قهرمان داستان بر اثر فشارهای روزافزون روحی و روانی دست به اقدامات تلافی‌جویانه می‌زند و زندگی خود و دیگران را به خطر می‌اندازد. این پژوهش با استفاده از روش تحلیل روانشناختی سعی دارد ابعاد شخصیتی قهرمان داستان را که نمایانگر قشر سرخورده روشنفکران است، مورد بررسی و تحلیل قرار دهد. این داستان در حقیقت، جوامع جهان سوم را به تصویر می‌کشد که نتوانسته از زیر بار مدرنیسم، تمدن نوین و گسست فرهنگی نجات یابد. این رمان بیشتر در پی شناسایی معضلات جامعه شرقی است که در تلاطم بحران‌های اجتماعی دچار آسیب و انحرافات رفتاری شده است. آنچه از بررسی اولیه این رمان به دست می‌آید، آگاهی نویسنده از جزئیات زندگی اجتماعی و تسلط او بر تصویرسازی مشکلات جامعه است. نویسنده این پیام را به مخاطب القا می‌کند که تحول و پیشرفت جامعه در گرو رشد تمامی اقشار جامعه است، و چنانچه تبعیض در آن حاکم شود پیشرفتی محقق نمی‌شود.

کلیدواژه‌ها: جلال برجس، دفترچه‌های کتابفروش، رمان اردنی، تحلیل روانشناختی.

* - دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه قم، قم، ایران. dr.mahallati@yahoo.com

تاریخ دریافت: ۱۴۰۲/۰۲/۲۲ ه.ش = ۲۰۲۳/۰۵/۱۲ م - تاریخ پذیرش: ۱۴۰۲/۰۵/۲۷ ه.ش = ۲۰۲۳/۰۸/۱۸ م.